زفرة العربي

أقصوصة شرقية

بقلم الأستاذ محمد عبد الله العمودي

(إلى غرناطة ...)

إيه ... يا زهرة مدائن الأندلس الجميلة ؟
يا موطن النور والحب والأزهار !
أين ذهبت السعادة التي كان يرفل في أثوابها سادتك الأمجاد ؟ أين قصورك الصيفية الشرقية البديعة ذات المآثر الطاعنة في أجواز الفضاء ؟
ما الذي حدث يا غرناطة حتى قطعت عن الوجود لحنك المطرب ، وأغانيك الشجية ؟

(الغرناطي : جوزي زورلا)

في صباح مكفهر الوجه ، مربد الأفق ، وفي ساعة مشئومة من ساعات الدنيا الفاصلة لمجال التاريخ وقعت أفجع فاجعة دامية حملها تاريخ الاسلام ، وطويت آخر صفحة من صفحات النبوغ العربي في بلاد الأسبان !

كان ذلك في صباح ١٠ يناير من سنة ١٤٩٢ ميلادية عند مادوت في سهل الفيجا Vega الفسيح ضربتان من مدفع نصب على أعلى برج من أبراج الحمراء ، مخطرة ملك إسبانيا الجديد فرديناند المتحصن بمدينة سانتافي Santefé[1] التي لا تبعد كثيراً عن غرناطة ، أن يتحرك ليتسلم زمام الأمر ومقاليد الحكم في حمراء غرناطة !

وفي مقصورة — وقتئذ — من مقاصير الحمراء ، الفسيحة بأريج المسك ، وشذى العنبر ، كان أبو عبد الله آخر ملوك بني الأحمر جالساً القرفصاء في محراب من محاريب الصلاة ، يعبد الله ويندب حظه ، ويودع أيامه المنطرة السابحة على أمواج الماضي في آخر ليلة من ليالي الحمراء العابسة !

وتوالت الطلقات تدمدم في آفاق غرناطة ، فعلم أن الساعة قد أزفت ، وأمر الله قد وقع ، فقام من فوره متثاقلاً وانحط على شرفة من شرفات الحمراء فتراءت له جبال سيرانفادا Sierranevada[2] وقد تعممت بركام من الثلج الفضي الذي يلمع في أعطاف الفجر ؛ وإنه لكذلك وإذا بنسمات الفجر الرقيقة قد هبت من أعالي هذه الجبال حاملة معها أنفاس المروج ، وعطر الأحراج ، إلى غرناطة وحمرائها !

ثم أغمض عينيه ، ووضع رأسه بين يديه ، واستسلم لتفكير عميق محض ، وراحت مواكب الذكريات تتزاحم على نفسه ، وتثقل صدره ، ولم تدم طويلاً لأن غمغمة الأحراج ، وهمهمة الجداول الساجية التي تشق ردهات الحمراء قطعت عليه سلسلة تفكيره فرفع رأسه المثقل ورمى بطرفه ثانياً في ضوء الفجر فرأى غرناطة ، غرناطة حبيبته التي صب عليها أجداده من قبل أنوار العظمة والجمال ، غارقة في أمواج من الخضرة والنضرة والسكون العميق ...

---

(١) مدينة في الفيجا بناها الكاثوليك أثناء حصارهم لغرناطة

(٢) معناها سلسلة جبال الثلج

وصعدت من صدره زفرة أرسلها فى جوف الفجر إزاء هذه المناظر الساحرة التى حركت إحساسه ، وألهبت عواطفه ، وهزت أسلاك قلبه ، وأثارت كامن شجونه ! ثم طفرت من عينيه دمعتان ساخنتان ، وعيناه ضنينتان بمثل هذا الماء فى جميع الأدوار القاسية التى مرت به ، ولكن للرجال ساعات تتلاشى فيها رجولتهم وكبرياؤهم

وراح صدره يعلو ويهبط ، وعيناه محدقتان إلى غرناطه وقد بللتهما الدموع ونسجت عليها ثوباً شفافاً تراءت له هذه المدينة الساحرة من خلاله وهى مضطجعة فى هذا السهل الممرع المخضل ، كأنها قطعة من سحاب ناصع ضارب فى سماء صافية ! !

وغرق ابن الأحمر فى بحار التأملات ، وما أفاق إلا على قول الحارث بن حلزة :

أجمعوا أمرهم عشاء فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن تصهـ
ـل خيل ، خلال ذاك رغاء

فأطل من شرفته ليرى ما الخبر ، فاذا بحاشيته تضطرب فى فناء السباع ، وقد أعدت كل معدات السفر ، ولم يبق إلا نزول السلطان ليأخذ طريقه إلى منفاه !

غامت مقاصير الحمراء فى عينيه ، وقد كانت بهجة النفوس ، ومتعة الخواطر ، ونزل ابن الأحمر يجر أذيال الخيبة وثقل الزمن ، وحساب التاريخ ، متثاقلاً متهالكا يترنح فى مشيته كالثمل ، واخترق الفناء فامتطى صهوة جواده الأدهم فاندفع به فى شوارع غرناطة وقد أقفرت من كل شىء تحف به كوكبة من رجاله المخلصين وبلغ آخر العمار فاحتضنه سهل الفيجا ، فلاحت خلال أغصان الغار الخوذ اللامعة ، والرماح المتألقة ، ودمدمة الجيش الاسبانى المنتصر يشق طريقه إلى غرناطة ...

وهناك فى مكان معين قابلته أولى طلائع الجنود الاسبانية وقد نسجت فى الجو من عثيرها رداء عكراً حجب قرص الشمس ، وقد ملأ هزيزها الآفاق وفى مقدمتها ذلك العلج الأسبانى (بدرو فازالو دى مندوزا) الذى يعتبره التاريخ أعظم موقد لنار الحرب على غرناطة . ونظر هذا إلى أبى عبد الله نظرة الشماتة ، أتبعها بتحية صفراء مزقت أحشاء الأمير العربى التعس

وتتابعت مواكب الأسبانيول تملأ السهل والوعر ، وهى تصب فى سهل الفيجا أروع حماسيات قشتالا ، وأعذب ألحان أراغونيا ، وابن الأحمر ساهم واجم تفترسه الآلام ، وتنوشه الهموم من كل جانب ، ولكنه أبدى من رباطة الجأش ، ومتانة الرجولة ، ما بهر أنظار الفرسان وهم يمرون به سريعاً .

وبينما طرفه يموج فى هذه الأمواج إذ لاحت له كوكبة من الفرسان تتوسطها مركبة مرصعة بكرات الفضة ، وعلى واجهتها الخلفية المرتفعة يتذبذب فى وهج الشمس صليب ضخم الحجم هائل المنظر ، من تحته يجلس الزوجان السعيدان فرديناند وإيزابلا ومن حولهما صفوة مختارة من الفرسان شاكى السلاح !

وطبقاً للشروط القاسية التى تعهد بتنفيذها هذا الأمير التعس فقد انحط من على فرسه بسرعة البرق

عند ما اقتربت منه المركبة الملوكية ، واخترق الصفوف ، ووقف فى قلب الموكب والحزن يحز قلبه حزاً ، وشاهده فى هذه الأثناء فرديناند بعمامته العربية البيضاء الممتازة فتريث قليلا فى سيره ليسلب شرفه نهائياً ويحطم كبرياءه العربي ، ونظر إلى أبى عبد الله نظرة فهم مضمونها فانحنى له هذا ، وقد أغمض عينيه ، انحناءة ماعرفتها ملوك العرب منذ الأزل ، انحناءة كان كابوسها الرهيب يتمثل له فى لياليه الأخيرة حتى أجهز عليه !

وتأذت أنظار الجمهور من هذه النهاية المؤلمة التى حلت بأمير المؤمنين سلطان غرناطة ومالقة والمرية أبى عبد الله سليل بنى الحزرج !

ثم رفع السلطان رأسه وقد احمرت عيناه وأدلى بيده على جيبه وأخرج مفاتيح المدينة وقدمها لفرديناند قائلا :

« أيها السيد ! هذه غرناطة ملكا لك ، وماقدر الله كان ، فهأنذا أضع مفاتيح هذا الفردوس بين يديك وأفوض إلى رحمتك وصدق إخلاصك حقوق أبنائى[1] »

ثم أشاح بوجهه وقد تفصد جبينه عرقاً ، وظن الجمهور أن الاسبانى وقد أخذته نشوة النصر ، وتفتحت له جنان غرناطة ، ستأخذه حنوة على هذا الأمير المنكود فيفيض على قلبه المسحوق العطف وحسن المعاملة ، ولكن العزة الكاذبة ، سلبتا منه مميزات النفس البشرية فاستلم المقاليد وتابع سيره فى جموع المسيحية التى قاربت طلائعها أبواب غرناطة بينما الأهازيج تجاجل فى أجواء الفيجا

ووقف سيد الأمس وطريد اليوم ، يندب حظه وملكه المضاع ، ثم زفر زفرة محرقة مزقت أحشاءه وسقط مغشياً عليه ، وما أفاق إلا على طلقة مدفع أحدثت دوياً شديداً فى سهل الفيجا ...

نهض وقد علقت بوجهه الشاحب حبيبات من الرمل ، أبعدها بردنه ثم أقبل على جواده فرأى هناك بعيداً على قنة برج من أبراج الحمراء صليباً من الفضة الصافية مؤذناً بأفول الهلال ، وعلى برج آخر حلت محل راية القرآن الراية القشتالية تتموج فى الرياح !

ومن هذا اليوم انقطع ذلك اللحن السماوى الحنون الذى ينصب فى أذن الفجر هاتفاً : الله أكبر ... الله أكبر ... ! وارتفعت ضربات النواقيس ، ودق الطبول ، وترانيم القسوس ، وسقطت غرناطة فى أحضان المسيحية !

* * *

تحرك ابن الأحمر من مكانه ، وامتطى صهوة جواده ، ولحق به أصحابه ، فلفهم الأفق بردائه

وهناك تحت أقدام جبال الثلج اضطجعت قرية صغيرة على سفح من سفوحه قد لفها الضباب برد ثه تسكنها بضع عائلات عربية رقيقة الحال ، تشتغل بالزراعة

فنزل ابن الأحمر على عين من عيونها ليقضى (سواد) نهاره هناك ، وعلمت بمقدمه جموع العرب فتوافدت إليه تسكب بين يديه العبرات الحرار ، وتندب ملكا مزقته المصيبة ، ونثرته الشهوات والأهواء !

(1) Luisa banal : gliultimi signori dell'al-hambra

لم يمض على وصوله ساعات حتى أقبلت أمه عائشة ، المرأة التي كان لها القدح المعلى في هذه الفاجعة ، تحف بها جوع الخدم والحشم وقد حملت من أبهاء الحمراء كل ما خف حمله ، وغلا ثمنه !

وآذنت الشمس بالمغيب ، وقبل أن تختبئ وراء خرائب الأبدية ، وقبل أن تمانق فلولها هامات الجبال المكللة بمصائب الثلج ، آوى أبو عبد الله إلى مخدعه يائساً وقد هد الحزن أركان قلبه ، وأكلت نار العذاب فؤاده ، وانطرح على فراشه وعيونه تنفجر بآلام أعظم فاجعة عرفها تاريخ البشر !

* * *

كان ذلك في اليوم الحادي عشر من شهر يناير سنة ١٤٩٢ ، قبل أن تنفض ذكاء أشعتها الدافئة على أعالي جبال البشرات Alpuxarrat أخذ أبو عبد الله طريقه إلى إفريقيا في غلس الفجر قبل انبثاق النور ...

ولفهم سهل الفيجا بصمته الرهيب ، فلم تحس لهم حسا ولا جرساً ، اللهم إلا حوافر الخيل توقع اللحن الموجع في مسمع الطبيعة ، وتملي على الوجود سورة الخلود العربي المخلف في بلاد الأسبان

وفجأة ، كانت الخيل قد وصلت إلى أعتاب جبال الثلج ، فاقتحمت صخورها ، وتغلغلت في أحشائها تزهاها مرتفعاتها الداهية صعدا إلى أعنان السماء !

وهنا بلغوا الذروة القصوى لهذه الجبال ، وهنا نفث المعربي الخزرجي زفرته الأخيرة كأنفاس الصيف ! ...

وأجال الفرسان أنظارهم من على هذا التخم ، فتراءت لهم آفاق الأندلس في صحوة الفجر تبعث معاني التهليل والتسبيح في النفوس ... هذه رحاب الأندلس كلها قد بدت كالبساط المدور حالة غارقة في أمواج الخضرة ، ضاحكة بمفاتن الطبيعة ؛ وهذه خيالات القرى البيضاء قد لاحت من خلال أشجار السرو والصفصاف كاللؤلؤ المنثور ! وتفقد ابن الأحمر مدينة أحلامه ، ليودعها آخر نظرة ، وأحر زفرة ، إلى الأبد ! فرآها غارقة في سبات عميق وقد غسلت أمواج القمر أبراجها المشمخرة ومنائرها السامقة ، فبدت تتلألأ في ضمير الفجر كشمارخ من فضة تهدلت من أجفان السماء !

أثر هذا المنظر الساحر في نفسه فزفر زفرة عميقة سجلها التاريخ في مطاويه ثم هتف هتافاً عاليا :

الله أكبر ..! الله أكبر !..

غرناطة ..! غرناطة !..

وسقط تخنقه العبرات في نحيب طويل !

* * *

في هذه الأثناء كان قرص الشمس الملتهب قد برز من خلال الجبال مهشما تلك الغمائم الرقيقة السابحة في هذه الأجواء . وأفاق ابن الأحمر على قبلات الشمس الدافئة وقد تقرحت أجفانه من فرط النحيب بينما كان أصحابه ينشجون نشيجاً مؤلماً يفتت الأكباد ويذيب الجماد ، وتشجع أحدهم وقد آلمته هذه المواقف التي تدمي الفؤاد فتقدم نحو السلطان وعلى شفتيه بضع كلمات تقال في مثل هذه المناسبات الموجعة تخفيفاً للكرب وترفيهاً للخاطر المشرد :

— صبراً يا عظيم الروح صبراً ... فلبعض

المصائب ثمن ... ! ولها فوائد فعالة عند ما تتموّج ذكرياتها فى أذهان الأحفاد ... !

ولكن أبا عبد الله لم يعبأ بهذا ، بل أشار بيده وقد خفضها قليلا إلى غرناطة الساحرة وهى تضحك فى نور الشمس وأجاب بكلام رقيق كنوم السحر :

— أواه ! أى نكبة تعادل نكبتى هذه ؟

ثم همز جواده الطهم ، فابتلعته أحشاء الجبال ، وغابت عن عينيه غرناطة ... إلى الأبد !

وركب البحر إلى (مليللا) على الشاطئ الأفريقى وشخص نحو (فاس) عاصمة الايالة المراكشية وبقيت روحه متشحة بوشاح الحزن والكآبة طيلة حياته

* * *

أما الربوة العالية التى وقف عليها أبو عبد الله وقفته الأخيرة ، وزفر فيها زفرته المشهورة فلا تزال حتى هذه الساعة تؤلف مزيجاً من الخرافة والتاريخ فى صدور الأسبانيول

يمر بها السائر فيجيبها فتحتدم فى نفسه ذكريات الماضى المطر ، ويرنو إليها البحار الأسبانى وهو معلق بسارية سفينته فى عرض البحر المتوسط فيطرق مليا مشغول البال ، مبلبل الخاطر ، ثم يترنم بأغانى شجية ومقاطع رومانسية تتعلق بأخبار العرب وآثارهم ... هذه الربوة مشهورة فى الغناء والتاريخ ! هذه il sospiro del moro «زفرة العربى !»[1]

(القاهرة) محمد عبد الله العمودى
دبلوم دار العلوم

(1) Yoseph mccabe : the splendour of moorish spain

شركة مصر للغزل والنسج

تقدم لكم المنسوجات القطنية الجميلة على اختلاف أنواعها

معتدلة فى اثمانهـــا ...

رائعة فى الوانهـــا ...

فبادروا باخذ طلباتكم